من أطرف ما قرأت

ميليزاند الأميرة

للأستاذ صلاح الدين المنجد

تمثلتُها في قصرها الضاحك ، فوق صخور الشاطىء ، رافعة يدها تومىء « أن هلموا إليّ ... أنا ميليزاند ، أنا الأميرة الحسناء ! »

إنها أسطورة ملؤها الخيال والجمال ، والمغامرة والشعر ! إنها حلم زاهٍ رفّاف ، وممنى بعيد بعيد !

في بلدة هادئة من « بلاّى » كان « روديل » الفتى الجميل ، ذو الجسم القوى ، والوجه الصبيح ، يرسل أشعاره اللاّى بالشجو والحب والأنين . لقد كان يحب ميليزاند الحلوة كالصبح ، المشرقة كالنور ، الرقاقة كالورد . فكان يتمثلها في خاطره ، ويداعبها في خياله ، ولا يستطيع أن يراها . ما أبعدها عنه ... ! هي في الشرق المسحور القاصي ، وهو في « بلاّى »

ولم يطق صبراً عنها ، فقد كانت نفسه ناعمة يهزها كل شيء ويؤثر فيها كل شيء . كانت كالقيثارة تمر عليها النسمة الخفيفة ، فتترك وراءها نغمة مطربة أو هزجة ناعمة

وكان يرسل أشعاره في هدأة الليل ، تحت القمر . وكان يحب تغريد العصافير ، فإذا صمتت ذكرته حبّه البعيد . يقول :

« عند ما تطول أيام مايو ، تلذ لي أغرودات العصافير . فإذا صمتت هاجت في قلبي ذكرى حب بعيد . فأعود مفكراً مطرقاً ، فلا أناشيد الرفاق تفرج القلب الحزين ، ولا رفيف الزهر يهيج النفس الكئوم

« أي فرح سيشرق في نفسي عند ما أراها وأطلب أن تضيفني ! سأسألها الضيافة ، بالله ، وبالغربة . وعندئذ ، ياما ألذّ أحاديث العاشق البعيد ، بقرب الأميرة البعيدة . وهو ينعم بصفاء عينيها الحلوتين »

« ثم ... ثم أتركها ، واحسرتاه ، حزنان أو فرحان ، راضياً أو كارهاً ، فلا أراها أبداً !

« لن أنعم بالحب إن لم أنعم بها ، لأني ما رأيت سيدة أنبل ولا أحسن منها ... ! آه ، ياليتني كنت عبداً لها !

« اللهم يا من خلقت كل شيء ... كلّ ما يموت ويحيا ، صل أسبابي بأسبابها ، في أي مكان شئت ! »

تلك كانت أغانيه . إن فيها حنيناً ولوعة ، كأنها نغمات من نغمات مالارميه أو فيرلين

وما زال (روديل) يسعى حتى سافر مع أهل الصليب . وقطع طريقه يغني ، ويمني نفسه بحلاوة اللقاء . وما كادت الباخرة تقرب من طرابلس حتى فاض سروره وزاد وجده . لقد كاد يرى ميليزاند ! وها هو ذا قصرها ينادي الناس . فيغلب عليه الوجد ، ويطغى عليه الفرح ، فيعل ويمرض ، ويحمل إلى المدينة ، ويوضع في كوخ حقير ، وهو يلفظ أنفاسه

وأسرعوا إلى الأميرة الحسناء فحدثوها عنه « لقد كان يغني مع الموج أغنيات حبه ، وكان ما يفتأ يلهج باسمك ويسبح بجمالك ... » فخفت إليه . ولما اقتربت منه ، وأسندت إلى صدرها رأسه ، دبت في جسمه الحياة ففتح عينيه ، وأرهف أذنيه ، وتدفق الدم في خديه ، وجلس يسمعها أشعاره ، ويؤنسها بأغانيه فتطرب ميليزاند ، وتنحني فتيل بثغرها الريان فمه وشفتيه

وعجب الناس من الأميرة كيف تحيي الموتى ، وعجبوا من العاشق الميت كيف يحيا ... ؟

وما أشبه ميليزاند ، بمحبوبة الأعشى التي قال فيها :

لو أسندت ميتاً إلى صدرها عاشَ ولم يُنقلْ إلى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر !

وأخذ (روديل) يحدثها عن آلامه وتحناته ، وأخذت تطرفه بأعذب الأحاديث ، حتى إذا قص عليها كل شيء وأسمعها كل شيء ، عاد ، فأغمض عينيه ... ومات

وأعجب الناس برووديل ، وجعلوا حبه أسطورة . فرنّت في أوربة ودوت ؛ وهام الناس بالشرق . وجعلوا الأميرة ميليزاند رمزاً ... وصوروها واقفة على شاطئ البحر ، بين يدي الأمواج تنادي الأمراء ، وتنادي الملوك ، وتنادي الناس « تعالوا وانظروا إلى الأميرة البعيدة ... تعالوا إلى البلاد المقدسة »

صلاح الدين المنجد